الفصل الثامن

شخصية النبي ﷺ التربوية

هذا الفصل هو المحور الرئيس لهذا الكتاب، بل هو الدافع لتأليفه. فقد كنت أنظر في أحوال المسلمين، وفي أحوال أبناء الحركات الإسلامية على وجه الخصوص، التي تعمل لنشر دين الله، ووضعت لذلك البرامج والمناهج، ورصدت المعلمين والمربين، ومع ذلك فقد يبقى الأخ المسلم سنين طويلة في محاضن الحركة الإسلامية التربوية ولا يتحول إلى ذلك الإنسان الرباني الذي هو عدة النصر في معركة الحق والباطل. بينما كان الأعرابي يُقبل على رسول الله ﷺ، يؤمن بما جاء به، ويدفعه رسول الله ﷺ إلى بعض أصحابه يعلمونه ويفقهونه، فيكون بتعاليم النبي، والتزود من زاده، والتخلق بأخلاقه، والتأسي بسلوكه، ذلك الإنسان الرباني الذي يبني نفسه ومجتمعه، ويتهيأ بتغيير حاضره لبناء مستقبله، وبتغيير نفسه لتغيير المجتمع.

لماذا فشلت الكثير من الهيئات والحركات الإسلامية في هذه المهمة الهامة والخطيرة؟

هل لضعف في البرامج التربوية وقصورها؟

هل الوسائل المستخدمة ما زالت متخلفة؟

هل التطبيقات العملية ما زالت مهملة والتركيز ينحصر في الموضوعات النظرية؟

قد يكون الأمر يتعلق نسبياً بكل هذه الأسباب.. ولكن السبب الرئيس (في نظرنا) هو غياب المربي الرباني الأخلاقي الذي يزرع الحب قبل الدرس، والذي يعتبر الطالب الذي يربيه أخاه أو ابنه قبل أن يكون رئيسه.. وبكلمة واحدة أن يتعرف على شخصية النبي ﷺ التربوية ويتأسى بها.

يقول النبي ﷺ: «**إنما بعثت معلماً**». ولهذا فلم يكن غريباً أن ترافق التربيةُ الدعوةَ الإسلامية منذ لحظاتها الأولى. وأن يكون رسول الله ﷺ - وهو خريج المدرسة الإلهية - أول معلم في الإسلام. وبالتالي الأسوة الحسنة للمعلمين.

إن استعراض حياة الرسول ﷺ العملية، ودراسة طرائقه التربوية، التي غيّر بها سلوك أصحابه. فنقلهم من ظلمات الجهل إلى أنوار المعرفة، ومن خشن الطباع إلى الأدب الرفيع. ومن الأنانية الطاغية إلى الإنسانية الرحيمة، ومن جبروت القبلية والعصبية العمياء إلى الأخوة الغامرة في الله. ومن ضياع الحاضر إلى بناء الحاضر والمستقبل. هذا الاستعراض يؤكد لنا أن رسول الله ﷺ هو المربي العظيم لأجيال المسلمين. ولكن من تأثر بقوله أو فعله أو إرشاده في الفكر والعاطفة والسلوك. وسنحاول هنا. أن نتبين بعض ملامح شخصيته ﷺ التربوية:

١ - حضه على التعلم والتعليم

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[1].

علّمهم وزكّاهم. وأمرهم بأن يشيعوا العلم والحكمة بينهم. قال لهم ﷺ «**والله ليعلمّن قومٌ جيرانَهم، ويفقهونَهم، ويفطنونهم، ويأمرونهم، وينهونهم، وليتعلّمن قومٌ من جيرانِهم، ويتفقهون، ويتفطنون، أو لأعاجلنّهم العقوبة في الدنيا**»[2].

إن هذا الموقف العظيم الذي يعتبر التقصير في التعلم والتعليم جريمة اجتماعية، يستحق مرتكبها العقوبة الدنيوية: موقف لم يرو التاريخ له مثيلاً في تقديس العلم، قبل النبي ﷺ ولا بعده[3].

---

(1) سورة الجمعة، الآية: 2.

(2) رواه الطبري في الكبير وهو حديث حسن أو يقارب الحسن، جزم بذلك الحافظ المنذري (الرسول المعلم- الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص: 17).

(3) المدخل الفقهي العام- مصطفى الزرقا (2: 641).

والأمر هنا هو (التعلّم والتعليم) ليس لمجرد الندب.. بل هو فريضة لقوله ﷺ: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم»**. فإذا قصّر العالم في واجب التعليم، أو قصّر الجاهل في تعلّم القدر الواجب من العلم.. استحقا عقوبة التعذير.

والعلم المطلوب هو كل علم نافع في أمور الدنيا والدين، يبني الفرد ويبني المجتمع ويفيد الإنسانية.. أما العلم الذي لا ينفع فقد حذرنا منه المعلم الأول ﷺ فقال: **«اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»**[1].

٢ - رؤوف رحيم

والعلم لن يتعدى الشفاه.. ما لم تقم علاقة محبة ورحمة بين المعلم والمتعلم. لقد كان رسول الله ﷺ من الرأفة والرحمة، وترك العنت وحب اليسر، والرفق بالمتعلم، والحرص عليه، وبذل العلم والخير له في كل وقت ومناسبة: بالمكان الأسمى والخلق الأعلى[2] قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

لقد كانت الرحمة عنده ﷺ تعاليماً وسلوكاً.. قال: **«لا يُرحم من لا يَرحم الناس»**. وقال: **«لا تنزع الرحمة إلا من شقي»**. وقال: **«الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**. وقال: **«إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه»**[4].

والمربي المحروم من الرحمة، الغليظ القلب، لا ينجح في عمله، ولا يُقبل الناس عليه. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[5].

---

(1) مسلم (كتاب الذكر والدعاة- 4899).

(2) الرسول المعلم- الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص: 22.

(3) سورة التوبة، الآية: 128.

(4) البخاري (كتاب الرقاق- 6002)، ومسلم (كتاب الفضائل- 4234).

(5) سورة آل عمران، الآية: 159.

◄ عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: أتينا النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً، فلما ظن أنا قد اشتقنا أهلنا، سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه، قال: «**ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم، ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم**»[1].

٣ - رفيق بالمتعلمين

لم يستخدم ﷺ العنف والفظاظة وهو يواجه المواقف الصعبة. أخذ الناس بالرفق واللين فهما الطريق الأقرب إلى القلوب. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[2].

وهذه آية شاملة لأهم الخصائص النفسية في شخصية المربي مثل:

◄ الرحمة اللينة الواعية بدل الشدة أو الغلظة التي تحطم العلاقات السوية الإيجابية. وحتى إذا سبق من المتعلم خطيئة.. فعلى العلاقات المتبادلة أن تظل قوية.. وقوتها إنما تفد من العفو والسماح.

◄ ثم لابد من إشعار المتعلم بكرامته وشخصيته وأهميته ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴿١٥٩﴾﴾[3].. لأن المرء لا يتعلم إلا إذا أحب معلمه، وعلاقات المحبة إنما تنمو سعيدة بالاحترام المتبادل.

لقد وضّح لنا ربنا ﷻ كيف نترفق بالناس رغم إيذائهم، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[4]. وأن ذلك من عزم الأمور، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[5].

---

(1) البخاري (كتاب الأذان- 595).
(2) سورة آل عمران، الآية: 159.
(3) سورة آل عمران، الآية: 159.
(4) سورة آل عمران، الآية: 134.
(5) سورة فصلت، الآيتان: 34 - 35.

لقد كان رسول الله ﷺ: «**يحب الرفق في الأمر كله**»[1].

(**فالرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شأنه**)[2].

وعلى الداعية أن يقتدي بالمعلم الأول ﷺ الحليم الرفيق، «**فمن يحرم الرفق، يحرم الخير كله**»[3].

٤ - يعطي كل جلسائه حقهم

وهذه ميزة عظيمة كان يتمتع بها رسول الله ﷺ.. فلم يكن أحدٌ من أصحابه يشعر بأن غيره أقرب إلى قلب النبي منه.

◄ روى سيدنا علي رضي الله عنه في وصفه لمجلس رسول الله ﷺ، قال: «كان يعطي كلّ جلسائه بنصيبه، لا يحسب جليسُه أن أحداً أكرم عليه منه»[4].

٥ - يحسن الاستماع ويتواضع للسائل

والاستماع الجيد ضرورة لاستيعاب الأمر.. وبدونه لا يمكن اتخاذ القرار الصائب.. ونصف الكلام لا جواب له. ومن حسن الاستماع:

◄ التفرغ لمحدثك فلا تنشغل عنه بقضية أخرى.. الأمر الذي يساعدك على فهم عبارة محدثك وملاحظة إشارته وصوته ووجهه، وكلها ضرورية لفهم الحديث.

◄ التركيز على صلب الموضوع والابتعاد عن الأمور الهامشية.

◄ الابتعاد عن سرعة الاستنتاج أو اتخاذ أحكام متسرعة بحق السائل. ولننظر إلى سلوك النبي وهو يحسن الاستماع ويتواضع للسائل:

◄ عن أبي رفاعة العدوي رضي الله عنه قال: (انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه.

---

(1) البخاري (كتاب الأدب - 5565)، ومسلم (كتاب السلام - 4027).
(2) مسلم (كتاب البر والصلة ـ 4698).
(3) مسلم (كتاب البر والصلة ـ 4698).
(4) الترمذي في الشمائل.

قال: فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأُتي بكرسي، قال: فقعد عليه وجعل يعلمني مما علّمه الله، ثم أتى خطبته فأتمّ آخره[1].

لقد فرّغ النبي ﷺ نفسه لهذا السائل، فقام إليه وجلس بجانبه، واستمع منه، ثم أجابه.

◄ وعن أنس رضي الله عنه: أن امرأة قالت: يا رسول الله، إنّ لي إليك حاجة، فقال ﷺ: **«يا أمّ فلان، انظري أيّ السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك»**، فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها[2].

طلب النبي ﷺ من هذه المرأة أن تشرح له قضيتها في الزمان والمكان المناسبين لها.. حتى يتفرغ لسماعها وإفادتها.

٦ - كلامه فصل

◄ ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تتحدث عن النبي ﷺ قالت: (ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه)[3].

◄ وروى أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه)[4].

◄ وكان رسول الله ﷺ يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير[5].

بهذا الصوت الأليف والنبرة الحانية الوادعة.. والهدوء في تناول الأمور.. كان ﷺ يفتح القلوب لتلقي الموعظة.

---

(1) رواه الشيخان واللفظ لمسلم (كتاب الجمعة- 1450).
(2) مسلم (كتاب الفضائل- 4293)، والترمذي وأبو داود.
(3) الترمذي في الشمائل.
(4) نفس المصدر.
(5) نفس المصدر.

٧ - يختار الأسلوب الأنسب لنفسية المتعلم

التربية الناجحة هي التي تراعي حالة المتعلم الجسمية، واستعداده النفسي والعقلي للفهم والاستيعاب والتنفيذ أثناء عملية التعليم.

فمن جاء إلى نائم وألقى عليه درساً، كان عمله عابثاً.. ومن أتى بطالب ناشئ في روضة الأطفال، أو المدرسة الابتدائية وألقى عليه محاضرة جامعية كان جهده ضائعاً.. وإذا وجدت إنساناً يغرق فليس من الحكمة التربوية أن تلقي عليه محاضرة في أهمية النجاة العاجلة.

وكذلك إذا وجدت إنساناً محاصراً في منزل شبت فيه النار، فصياحك عليه بضرورة المحافظة على سلامته، وإعلامه بآثار الحريق الضارة لا يفيد.. ولننظر في هذا الموقف التربوي الذي سجله النبي ﷺ في تعامله مع الآخرين.

ولننظر إلى توجيهات النبي ﷺ التربوية، وكيف كان يختار الأسلوب الأنسب لنفسية المتعلم.. ويختار الوقت المناسب الذي يراعي حالة المتعلم الجسمية والإدراكية والنفسية والصحية أثناء العملية التربوية.

◄ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي وقام إلى ناحية المسجد، وجعل يبول فصاح به الناس وقالوا: (مه. مه)، فقال الرسول المربي: «**لا تزرموه**» فتركوه حتى انتهى. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له:

«إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن».

ثم إنه أمر رجلاً من القوم فجاء بذنوب - بدلو من ماء - فشنه - حسه عليه[1].

في هذا الحديث النبوي توجيهات تربوية بليغة في مراعاة حالة المتعلم النفسية، والاجتماعية، والجسمية، والصحية. لأن كل عملية للتعليم تهمل جانب المتعلم هي عملية فاشلة عقيمة.

---

(1) مسلم (كتاب الطهارة- 429) وأحمد - 12515.

ففي قوله ﷺ: «**لا تزرموه**» حكمة نفسية اجتماعية بالغة، وهي أن الإنسان المدرك يميل فطرياً إلى التستر والاختفاء والبعد عن الجماعة أثناء عملية التخلص من الفضلات.. فمحاولة التشهير والإعلان فيها إحراج نفسي، وخجل اجتماعي، لا يكون الإنسان معها في موقف يعينه على الانتباه والفهم والتعلم. كما أن التوقف أو الامتناع الطويل يتطلب جهداً مضنياً لأعصابه القابضة على عدم الانطلاق.. وهي جهود إذا استمرت فإنها تسبب آلاماً وأمراضاً.

وهنا تظهر الحكمة التربوية النبوية في «**لا تزرموه**» في الجانب النفسي، والجسمي، والصحي للمتعلم.

ثم هب أننا أغفلنا كل ما تقدم من الحكم التربوية، وفرضنا أن الرجل قد سمع إلينا وحملّناه الآثار السيئة في نفسه وجسمه.. فإن الغرض الشرعي المطلوب لا يتحقق بل إنه على العكس من ذلك.. فبدل أن المكان الذي أصابته النجاسة صغيراً محدوداً يكفيه دلو من الماء، فإنه حين يمشي الرجل.. سينشر النجاسة من مكان إلى مكان في مساحة أكبر في المسجد ولا يكفيه عشرات من الدلاء.

٨ - رعايته الفروق الفردية في المتعلمين

لقد كان المعلم الأول ﷺ شديد المراعاة للفروق الفردية والنفسية بين المتعلمين من المخاطبين والسائلين، فكان يخاطب كلّ واحد بقدر فهمه وبما يلائم منزلته، وكان يحافظ على قلوب المبتدئين، فلا يعلّمهم ما يعلّم المنتهين. وكان يجيب كل سائل عن سؤاله بما يهمه ويناسب حاله.

وللنظر في هذه المواقف التربوية.. وكيف كان النبي ﷺ يوجه أصحابه كلا حسب قدرته على الاستيعاب، وحاجته.

إذاً يتكلموا

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ (ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل) قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك رسول الله وسعديك.

قال: **ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، صدقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار**، قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: **«لا، إذاً يتكلموا»**[1].

لقد خص نبي الله ﷺ بهذا العلم الدقيق قوماً فيهم الضبط وصمة الفهم وأوصى بأن لا يبذل هذا العلم لمن يحسنون فهمه فيتكلوا.

إن الشيخ يملك إربه

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فجاء شاب فقال: يا رسول الله، أُقبّل وأنا صائم؟ قال: **«لا»**، فجاء شيخ فقال: أُقبّل وأنا صائم؟ قال: **«نعم»**، فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله ﷺ: **«قد علمت لِمَ نظر بعضكم إلى بعض، إن الشيخ يملك نفسه»**[2].

وفرق بين الشاب المتقد حيوية.. وبين الشيخ الذي فقد الكثير من حيويته.. هذا الفرق اقتضى التوجيه التربوي المختلف.

ففيهما فجاهد

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: **«أحيٌّ والداك؟»** قال: نعم، قال: **«ففيهما فجاهد»**[3].

هذا مع ما عُرف عن النبي ﷺ من الحض على الجهاد والهجرة والترغيب فيهما، ولكنه ﷺ لاحظ حال هذا السائل.. فرأى بر الوالدين أهم وأفضل من حقه في الجهاد.

أوصني بشيء

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: **«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**[4].

---

(1) البخاري (كتاب العلم- 125)، ومسلم (كتاب الإيمان- 47).
(2) الإمام أحمد (رقم الحديث 6451، 6757).
(3) البخاري (كتاب الجهاد والسير- 2782)، ومسلم (كتاب البر والصلة- 4623).
(4) الترمذي (كتاب البر والصلة- 191)، وأحمد (مسند الأنصار 20392).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني بشيء، ولا تكثر عليّ لعلي أعيه، قال: «**لا تغضب**». فردد ذلك مراراً، كل ذلك يقول: «**لا تغضب**»[1].

سؤال واحد أجاب عليه رسول الله ﷺ إجابات مختلفة تتناسب مع كل سائل.

كيف النجاة؟

◄ وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أعرابياً جاء رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة؟ قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**»، قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه. فلما ولّى قال النبي ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**»[2].

◄ وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**»[3].

◄ وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه ، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: قل: «**آمنت بالله ثم استقم**»[4].

◄ وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أملك عليك لسانك، وليسعك بيتُك، وابك على خطيئتك**»[5]. أسئلة كثيرة عن أفضل الأعمال.. أجاب عنها النبي ﷺ كل سائل بما يلائم وضعه.

---

(1) البخاري (كتاب الأدب- 5651)، والترمذي (البر والصلة- 1943).
(2) البخاري (كتاب الجهاد والسير- 2782)، ومسلم (البر والصلة- 4623).
(3) الترمذي (كتاب الدعوات- 3297) وابن ماجه (كتاب الأدب- 3783).
(4) مسلم (كتاب الإيمان- 55)، وأحمد (مسند المكيين- 14869).
(5) الترمذي (كتاب الزهد- 2330).

أي الإسلام خير؟

◄ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خيرٌ؟ قال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[1].

◄ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، فقال: أيُّ المسلمين خيرٌ؟ فقال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[2].

أي الأعمال أفضل؟

◄ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل النبي ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»[3].

◄ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُ العلم أفضل؟ قال: «**الصلاة لوقتها**»، قال: قلت: ثم أيُ؟ قال: «**بر الوالدين**»، قال: قلت: ثم أيُ؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله، فما تركت أستزيده إلا إرعاء عليه**»[4].

◄ وروى أبو يَعلى عن رجل من خثعم قال: آتيت النبي ﷺ، وهو في نفر من أصحابه. فقلت: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**الإيمان بالله**، قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه (أي ثم ماذا)؟ قال: «**ثم صلة الرحم**»، قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال: «**ثم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر**».

أجوبة مختلفة لأسئلة متشابهة.. راعى فيها الرسول المعلم ﷺ أحوال السائلين.. وما يحتاجون إليه.

٩ - يتدرج معهم

كان المعلم الأولّ يراعي التدرج في التعليم، يقدم الأهم فالمهم، ويعلم شيئاً فشيئاً نجماً نجماً، ليكون أقرب تناولاً، وأثبت على الفؤاد حفظاً وفهماً.

---

(1) البخاري (كتاب الإيمان- 11).
(2) البخاري (كتاب الإيمان، 9-10) ومسلم (كتاب الإيمان- 57).
(3) البخاري (كتاب الإيمان- 25، وكتاب الحج 1422)، ومسلم (كتاب الإيمان- 118).
(4) مسلم (كتاب الإيمان- 120).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن، فقال: **«إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»**[1].

١٠ - يقابل الإساءة بالإحسان

إن العلاقات المحببة النشيطة، ينبغي أن تكون ركناً أساسياً في تكوين كل شخصية إنسانية كريمة.. لتعيش سعيدة في ذاتها، ولتنشر السعادة فيمن حولها.. بيد أن هذا السلوك أشد وجوباً وإلحاحاً في شخصية كل من له سلطان تربوي نفسي، أو سلطان تعليمي توجيهي، أو سلطان إداري إشرافي.. فسلامة الصدر، وكبر القلب، وهدوء النفس.. كل ذلك عوامل عاطفية عقلية هي أساسية في نجاح تلك العلاقات الإنسانية.

دعونا نعش قليلاً في أحد المواقف التربوية النفسية الرائعة التي نجدها ماثلة في حياة الرسول الأكرم ﷺ، لتكون مثلاً أعلى لكل مربّ أو معلم.

ذاك أعرابي.. عاش في البادية، وقد أتى أول مرة إلى المدينة. فيفد إلى رسول الله ﷺ يطلب شيئاً من الصدقة، فيعطيه النبي ﷺ ما كان لديه حاضراً. ثم يسأل الأعرابي: **«أأحسنت إليك»**.. قال الأعرابي منكراً بقسوة: (لا، ولا أجملت).. سمع ذلك من كان حاضراً من الصحابة، فغضبوا من هذا الرد السيء يُقابل به الرسول الكريم، ولكنه أشار إليهم فوراً، أن كفوا عنه.. وقام ﷺ فدخل منزله وأتى بما يُنعم به على الأعرابي ثم أرسل إليه وزاده.. وهنا يسأله رسول الله ﷺ: **«أأحسنت إليك»؟!**

قال الأعرابي: نعم أحسنت وأجملت.. وجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

إنه أعرابي يمثل صفاء البادية وتلقائيتها، كل ما فيها ظاهر وصريح، وقاس ومباشر. ولكنه الرسول المربي، وهو يعلم هذه النفسية، عاملها بما يلائمها،

---

(1) الشيخان.

وإلى هنا والحادثة لم تنته، إذ قال - عليه الصلاة والسلام - للأعرابي بعد أن رضي:

«. . . **إنك قلت ما قلت، من عدم رضائك أو لا، وفي نفس أصحابي عندما سمعوك من ذلك شيء عنك، فإن أحببت** - ولننظر لهذا الرجاء المؤدب - **فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب ما في صدورهم عليك**. .».

إنه علاج تربوي نفسي للجانبين معاً في آن واحد. علاج للأعرابي ليصلح ما بدر منه، وعلاج لنفوس الصحابة فيرضون عن ذلك الأعرابي. ويجيب الأعرابي بكل صفاء. نعم. فلما كان العشي وتجمع الصحابة جاء رسول الله ﷺ فقال: «**إن هذا الأعرابي قد قال ما قال. . ثم زدناه. فزعم أنه قد رضي، أكذلك؟**».

قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. .

والختام التربوي الهام للحادثة: كان تحليلاً لنفسية الأفراد ولا سيما في عمليتي التربية والإدارة. إذ أن حسن المعاملة، ورد الإساءة بالإحسان يضفي حسن السلوك، إن عاجلاً أم آجلاً، ويضفي السعادة النفسية فوراً. وفي ختام هذه الحادثة مثل توضيحي لتلك العلاقات الإنسانية النفسية. إذ يقول الرسول الأكرم ﷺ:

«**مثلي ومثل هذا، مثل رجل له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس ليقبضوا عليها، فلم يزيدوها إلا نفوراً. . فناداهم صاحبها: خلو بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه إليها بين يديها، وأخذ لها من قمام الأرض من أعشابها، فردها هادئة وجاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها. . .**».

واختتم الرسول الأكرم ﷺ هذه الحادثة بقوله:

«**وإني لو تركتكم حيث قال الرجل فقتلتموه دخل النار. .**».

١١ - كان ﷺ يكتشف طاقات أصحابه

تعرّف على قوة عمر. . فكان يدعو الله أن ينصر به الإسلام، وتعرّف على قوة خالد، فقال: إنه سيف من سيوف الله، وتعرّف على قوة أبي عبيدة فقال: غداً

أرسل معكم القوي الأمين، وتعرّف في الوقت ذاته على ضعف أبي ذر فقال ﷺ: **«يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمّرن على اثنين ولا تولّينّ مال اليتيم»**[1].

لقد علّمنا رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله وسيرته، كيف نكتشف ونرشد الطاقات.

اكتشاف شخصية زيد بن ثابت رضي الله عنه

رأى نبينا محمد ﷺ زيد بن ثابت رضي الله عنه فأعجب به وأدرك على الفور موهبته في الفهم السريع والحفظ القوي والذاكرة الحية، فقال له: **«يا زيد تعلّم لي كتاب يهود فإني والله ما آمن يهود على كتاب»**.. قال زيد: فتعلمت كتابهم، ما مرت بي خمس عشرة ليلة حتى حذقته. وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب. ثم سأله رسول الله ﷺ: **«تحسن الربانية إنها تأتيني كتب..؟»** قلت: لا، قال ﷺ: **«فتعلمها»**. فتعلمتها في سبعة عشر يوماً. هذه هي مهمة القائد: أن يستكشف الطاقات من حوله، ويدربها ويوجّهها.

اكتشاف شخصية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

كان عبد الله بن مسعود نحيل الجسم ضامراً، دقيق الساقين قصيراً.. اكتشف رسول الله ﷺ مواهبه فقال له: **«إنك غلام معلّم»**. شجعه على التفرغ للعلم، وقرّبه منه حتى كان أشبه بصاحب سره، لا يفارقه في سفر ولا حضر.. ويدور الزمان ويصبح الراعي المغمور من أئمة الصحابة وعلمائهم وقرائهم، يجعله الرسول للناس إماماً ويوصي أصحابه أن يقتدوا بابن مسعود فيقول: **«من سره أن يقرأ القرآن غضّاً كما أُنزل فليسمعه من ابن أم عبد»**[2]، كان يمكن أن يبقى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رويعي غنم في مكّة لا يأبه له أحد.. ولكن الرسول الأعظم ﷺ يتعهد الطاقات بعد اكتشافها، فيصبح هذا الصحابي الجليل

(1) مسلم (كتاب الإمارة- 3405).

(2) رواه أحمد (مسند العشرة المبشرين - 256).

معلماً وإماماً. وفي خلافة عمر رضي الله عنه يرسله الخليفة إلى الكوفة ومعه كتاب تكليفه، وقول عمر رضي الله عنه : (إني والله قد آثرتكم به على نفسي.. فخذوا منه وتعلموا)[1].

اكتشاف شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الرسول القائد يكتشف مواهب عمر بن الخطاب قبل أن يسلم فيطلق قولته المشهورة: «**اللهم انصر الإسلام بأحب العمرين إليك.. عمرو بن هشام أو عمر ابن الخطاب**».. سهّل له القدوم فأصبح من أعاظم القادة في التاريخ. كان نموذجاً فريداً في سرعة الإدراك واستقراء الأحداث والحكم عليها.

يوم أسلم جاء دار الأرقم بن أبي الأرقم وأمام رسول الله ﷺ نطق بالشهادتين.. ومنذ لحظة دخوله في الإسلام.. استشعر مسؤوليته عن الدين الجديد.. وطالب رسول الله ﷺ بالخروج ومواجهة الشرك. من يقلّب صفحات التاريخ الإسلامي سيجد مكاناً بارزاً فيه، تبوأه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مستشاراً لرسول الله ورفيقاً للخليفة الأول.. وخليفة عادلاً.. وقائداً فذّاً ندر مثيله في التاريخ.

كيف اكتشف رسول الله ﷺ موهبة عمر وهو ما زال في معسكر الشرك يذيق المسلمين أشدّ العذاب، وكيف هذّبه بعد إسلامه حتى غدا في مقدمة العظماء الذين يفخر بهم تاريخ الإنسانية. هذا هو دور القائد المربي في التعرف على القيادات وإطلاقها لتأخذ دورها في معركة البناء.

اكتشاف شخصية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

الرسول القائد يكتشف موهبة عبد الله بن عباس فيقول ﷺ: «**اللهم فقّهه في الدين**».. فأصبح فقيه الأمة وحبرها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصحاب محمد ﷺ فسألهم رضوان الله عليهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر،

(1) الرسول العربي المربي - د. عبد الحميد الهاشمي، ص: (164-175) باختصار.

قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم - أو أني لأظن - أي ليلة القدر هي، فقال عمر: وأي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر. فقال عمر: من أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس فقلت: خلق الله سبع سمٰوات، وسبع أرضين، وسبعة أيام، وأن الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها، فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنّا له)[1].

ويلتقط سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الموهبة الشابة المبكرة، ويضمه إلى مجلس شوراه، وهو بعد فتى صغيراً، هذا هو دور القائد.. يبحث عن المواهب، ويصقلها، ويقدمها.. فما معنى اكتشافها إذا بقيت مهملة..؟

اكتشاف شخصية أسامة بن زيد رضي الله عنه

اختار رسول الله ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنه لقيادة الجيش المتجه لدومة الجندل لقتال الروم - مع وجود من هو أقدم منه في الجيش من كبار الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر - فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: بعث النبي ﷺ بعثاً، وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: **«إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً بالإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»**.

المسلمون كانوا ينظرون إلى أسامة وإلى والده زيد من قبل بعيون الموقع والقبيلة.. ورسول الله ﷺ كان ينظر إليهم بعيون القائد الذي يبحث عن الموهبة.

اكتشاف شخصية خالد بن الوليد رضي الله عنه

الرسول القائد ﷺ يكتشف موهبة خالد بن الوليد العسكريّة فيقول:

«خالد سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين». فيصبح خالد القائد العسكري العظيم الذي لا يُهزم.

---

(1) الطبراني.

البحث عن الراحلة

الرسول ﷺ يخبرنا فيقول: «**تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة**»..

ومهمة القائد الناجح أن يبحث عن هذه الراحلة..

ومهمة الحركة الناجحة أن تبحث عن هذه الراحلة.. فهي وحدها القادرة على استيعاب الشباب واكتشاف مواهبهم في مجالات التربية والسياسة والتخطيط والتدريب.

روى البخاري، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**أخبروني عن شجرة تشبه المؤمن** - أو كالرجل المسلم - **لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاءً، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؟**». قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «**إنها النخلة**»، فلما قمنا، قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تكلم؟ قلت: لم أركم تكلمون فكرهت أن أتكلم وأقول شيئاً، قال عمر: لأن تكن قلتها، أحب إليّ من كذا وكذا[1].

واكتشاف المواهب عملية شاقة وطويلة، وهي أساس سعادة الفرد وتكامل المجتمع.. وتحتاج إلى قائد ومرب ماهر يستخلص الدرر والجواهر من بين حبات الرمال المتراكم.

(1) تفسير ابن كثير (ج 2، ص: 530).

خلاصة الفصل الثامن

شخصية النبي ﷺ التربوية

(1) حضّه على التعلم والتعليم.

(2) رؤوف رحيم.

(3) رفيق بالمتعلمين.

(4) يعطي كل جلسائه حقهم.

(5) يحسن الاستماع.

(6) كلامه فصل.

(7) يراعي نفسية المتعلمين.

(8) يراعي الفروق بين المتعلمين.

(9) يتدرج معهم.

(10) يقابل الإساءة بالإحسان.

(11) يكتشف الطاقات.